الأدب فى العراق

كلمة تشخيصية أولى

للأديب السيد عبد الوهاب الأمين

— ١ —

الأدب بعد الحرب

دعى القرن العشرون قرن المدنية والنور ؛ ولقد كانت مفاخر العصور السابقة من طراز آخر غير المدنية وغير النور ، فمفهوم « المدنيـة » لا زال مقروناً بالحرب والدمار ، ولا يزال النور مقصوراً على الماديات دون المعنويات . وقد قامت بعد الحرب العظمى هيجة صاخبة أيقظت جميع الشعوب ، كان قوامها نهضة أدبية شاملة ، لا تزال بقايا منها محتفظة بفعالية ظاهرة . وها نحن أولاء نرى فى كل يوم دليلاً جديداً على هذه النهضة الأدبيـة الـكبرى ، فيما تستبق إليه المطابع العربية من نشر مؤلفات جديدة لشخصيات أدبية عالية من طراز لم تعهده البشرية قبل الحرب العظمى ؛ فكان من الطبيعى أن يثار التساؤل عن هذا الأدب وهذه النهضة الأدبية ، وما محصولها وقوامها وجدواها ؟ وهل الأدب لهو يزجى الإنسان به ساعات فراغه ليعتصم به من مفاسد الفراغ كما يقول الشاعر ؟ أو هو ضرورة من ضرورات الحياة المدنية ودلالة على الحياة المعنوية المـكتملة ؟

إن كانت الحياة لهواً فالأدب كالحياة لهو لا مفر منه ، وإن كان يفوقها بأنه لهو له جدواه ودلالته ، وهى مقصورة الدلالة على أنها لا جدوى لها ؛ وهو إحدى ضرورات الحياة الشاعرة المدركة ودلالاتها ؛ وبغير فضيلتى الشعور والإدراك لا تبقى من معانى الحياة غير الناحيـة البهيمية التى يترفع البشر المدرك أن يقتصر عليها . والأدب — وهو وصف الحياة الصادق — مقرون بالحياة ومحمول عليها ؛ فإن كانت حياة رفيعة فهناك أدب رفيع ، وإن كانت منحطة فأدب منحط ؛ وفى هذه الناحية يؤيدنا التاريخ تأييداً لا يستدعينا البرهان

ونعتصم بالتاريخ مرة أخرى فنراه يقول : « إن نهضة من النهضات فى الشعوب العالية لم تتم إلا بعد أن تقدمتها حركة أدبية » . وقد سجل هذا التاريخ فى صفحاته مجداً لفولتير ورسو كمجد تاليون وروبسبير ؛ ولسنا نعنى أن الأدب بصورة مجردة يتقدم ظهوره فى نهضات الشعوب ، بل المقصود أن تقدم ظهوره فى مثل هذه الحالات إنما هو دليل قاطع على نهضة تلك الشعوب وإنذار وبلاغ بنهضة مقبلة على الفور ، وما نريد أن نعنى بالأدب غير البلاغ والإنذار

هل الأدب ضرورة ؟

ليس من شك فى أن الأدب ضرورة

وهو ضرورة لا تشبه غيرها من ضرورات الحياة الـكبرى ، لأنها ضرورة شديدة الشبه بالحياة نفسها كما تقدم ، وذلك لأنها حياة أخرى من دون لحم ودم . أو هى الحياة نفسها مخلدة على الورق ، وفى بطون الـكتب . وليس المقام مقام تمجيد للأدب ومغالبته فى الحياة ، وإنما هو مقام تعريف بقدره ومكانته بوجه عام ، وما دمنا نريد لحياتنا العامة تقدماً واضطراداً . فأحرى بنا أن نوجه أنظارنا لتعرف آثار هذه النهضة المقبلة وما يجب أن يسبقها من البعث الأدبى

نظرتنا الى الأدب ونتائجها

لذلك ينبغى أن تغير نظرتنا إلى الأدب ، تلك النظرة السطحية التى تعودنا منذ عشرات السنين أن ننظرها إلى المحصول الأدبى وإلى أشخاص الأدباء ، سواء الأحياء منهم والأموات . يجب أن نفهم أن الأدب ليس تزجية الفراغ ، أو سمر العاطل ، أو منادمة الميسور ، أو ما يدخل فى أمثال هذه المعانى مما درجنا على اعتقاده ، فالأدب كما يفهم غيرنا قوة فعالة فى الحياة اليومية والحياة العامة بصرف النظر عن مفهومه ودلالته

إن هناك خطراً خلقياً عظيم الأثر سنتعرض له ، إذا استمرت نظرتنا إلى الأدب على ما هى عليه الآن من السطحية وقلة الشأن من جهة ، ومن الخطأ الشائع فى مفهومه وإدراكه من جهة أخرى . فالأديب فى نظر الأكثرين منا هو الشخص الذى يعيش على هامش الحياة ولا يقيم وزناً لخارجياتها وماديتها ، ولا يسأل عما يقول أو يفعل ، ويكفى أن يوصف الانسان « بالأديب »

لكى يفهم السامع أنه أمام شخص غريب الأطوار يعيش فى عالم لا علاقة له بالحاضر ولا يطلب منه الاستعداد للمستقبل . وكذلك يتلقى أكثرنا كتابات الأدباء وقصائد الشعراء على أنها أقرب ما تكون إلى الآثار والعاديات

وقد كان لهاتين الحالتين نتيجتان أولاهما مادية والأخرى روحية ، فالأولى أننا أصبحنا فقراء فى أدبنا عالة على آداب غيرنا . فنا من ينصرف إلى قراءة الأدب باحدى اللغات الأجنبية إن كان يحسنها ، والذين يجهلون تلك اللغات قد تعودوا القناعة بما تصدره مصر وسورية وبقية البلاد العربية من مطبوعات وكتب . والنتيجة الروحية هى هذه الحالة التى نوشك أن نحس بها جميعاً من القنوط من بعث أدبى لانحس الحاجة إليه ، ويقنعنا أن نكتفى بالتعيش على فيض مما تصدره جاراتنا العربيات من أدب يختص بهن ، ولا يطمئن حاجاتنا الروحية أو يعبر تمام التعبير عن إحساسنا الفنى

أدبنا كما ينبغى أن نفهمه

الأدب كما يفهمه هـذا العصر لا ينحصر — كما يعتقد الكثيرون منا ممن اقتصرت ثقافتهم على نوع واحد من أنواعه — فى القدرة على الأداء والتعبير الجميل ، بل أصبح — بفضل الطباعة والصحافة — يضم إليه أشتاتاً أخرى من فنون لم تكن فى العهد القديم تقرن به ؛ وتطورت تسمياته فأصبحنا نسمع الآن « بأدب البحر » و « أدب الموسيقى » و « أدب الوقد » وما إلى ذلك من التسميات . وعهدنا نحن بالأدب أنه محصور فى اللغة والبديع ، والأمالى ، والمقامات ، وما إليها . ولكل من هـذه الفنون — طبعاً — أصول ليس فى مكنة الأديب أن يتعداها أو يغفل عنها ؛ ومن هنا نتج الضيق فيما نسميه نحن أدباً ويسميه الغربيون عنا Folklore بينما هم يسمون الأدب باسم آخر

ولو أردنا أن نحصر مفهوم الأدب كما يدركه أبناء العصر الحاضر لما عجزنا عن ذلك فحسب ، بل لكان عملنا — لو تم — ناقصاً فى ذاته ، بالغاً ما بلغ من كمال ؛ ذلك لأن المفهوم عنه لن يقف عند ما سوف نصل إلى تحديده وتعريفه ، بل سيخلق وشيكاً غيره وغيره من فنون لا نستطيع منذ الآن أن نعطى فكرة عنها

فنحن الآن مثلاً لا زلنا نعيش فى أدب الترسل واجترار الكلام على الأصول القديمة ؛ أما فى العالم فقد حدثت بعد دورنا هذا آداب جديدة : كأدب المقالة ، وأدب القصة ، وأدب الرواية ، وأدب الترجمة Biography ولن يستطيع أى مفكر وأديب كبير أن يتنبأ عن أدب العصر المقبل : ما هو ؟ وكيف سيكون ؟ وماذا يفيد ؟ وما أسلوبه؟

علم الأدب

إننا نفهم الأدب الآن فهماً غريباً لا هو بسبيل فهم الأقدمين له ، ولا هو على شاكلة ما يعنيه الغربيون ويصطلحون عليه ؛ فقد كان شأنه فى القديم عظيماً ، وكان شخص الأديب عنصراً فعالاً فى الحياة العامة . وحسبنا دلالة على مفهوم الأدب وفعاليته فى تلك العصور ومقام الأديب فى الحياة الاجتماعية أن الأقدمين كانوا يمزون الأدب فيسمونه « علماً » وهم يقصدون بالعلم ما نقصد العلم به الآن بهذه التسمية فيقولون « علم الأدب » ! ويصفون الأديب بأنه عالم فى علم الأدب

تطور مفهوم الأدب والصحافة

والأدب فى العصر الحاضر له مفهوم تطور وترقى حتى زاد فى علوه على ما كان له من المكانة فى العصور القديمة ، وأصبح شأنه فى الحياة العامة أعمق وأخطر مما كان عليه فى العصور التى سبقت المدنية الحديثة ، وأصبح الانسان لا يستطيع أن يتصور بلداً متمدناً من دون صحف وطباعة . وقد حاول أحد الكتاب أن يستمر فى خياله عن مدنية كهذه ، فانتهى به الأمر أن وكل نتائجها إلى الجنون . فقد أصبحت الصحافة سلاحاً وكانت فى بداية أمرها لا تزيد على وسيلة بسيطة لزيادة المعلومات العامة ونشر الأخبار ؛ وصارت « القصة » الفنية الأدبية وسيلة العالم فى الدعوة إلى نظرية من نظرياته ، والفيلسوف إلى نشر فلسفته ، والسياسى إلى الدفاع والدعاوة عن سياسته ، وغدا شخص الأديب متمتعاً بأكثر مما كان يتمتع به شخص الأمير من التجلة والاحترام والتقدير والمهابة فى العصور السابقة

الأدب كما نفهمه نحن

أما ما نفهمه نحن عن الأدب فانه ينحط إلى أقل من اللهو والمجانة ، وبعض أساليب اللهو عنـدنا تستدعينا شيئاً من الجد والهمة فى إحضارها والاستعداد لهـا ، أما الأدب فلا نكاد نعتبره من الملاهى التى نجد فى الحصول عليها ، فان حصل من تلقاء نفسه فانه لا يكاد يعنينا إلا أن نكون نحن فى حالة لهو ، أو نتلقاه على أنه صنيعة لاه غير مسؤول عما يقول ، فى ساعة لهو خالية من خير أو من جد أو من منفعة . وهـذا نهاية ما يصل إليه سوء فهم الأدب ، وسوء تأويله ، وخطر حالة مثل هذه لا يقتصر على تشويه جمال الأدب نفسه ، بل يتعدى ذلك إلى خلق شعور العجز والمحاكاة والتقليد الأعمى كما نرى جماع ذلك فى حياتنا الأدبية الحاضرة

لقد آن لنا أن ندرك حظ الأدب ومقابلته فى الحياة العامة وتأثيره فى إعداد الأجيال المقبلة الاعداد الذى يتفق مع ما سيحتاجون إليه من كفاءة وقدرة . ونحن مسؤولون أمام التاريخ عن إهمال الناحية الأدبية والفنيه فى حياتنا ، كأفراد ، وكأمة ، وكحكومة . وما دمنا نسعى إلى النهوض فى جميع مناحى حياتنا العامة فأحرى بنا أن نضع نصب أعيننا ضرورة اعتبار الأدب بوجه عام من أهم ما ينبغى السعى على إحيائه والعمل على النهوض به . ولن يستدعينا العمل لهذه الغاية ما يستدعى الحياة المادية من تضحية فى النفوس والأموال والكفاءات والجهود ، بل كل ما نحتاجه فى هـذا المضمار هو تحسين نظرتنا إلى الأدب ومعناه وأثره واعتباره من الضرورات التى ينبغى أن نوحد الجهود فى سبيل العناية بها فى غمار ما نحن آخذون بسبيل السعى إليه من نواحى الحياة الأخرى ، والكف عن اعتباره ألهية لا تستحق عنايتنا إلا بعد الاجهاد والنصب كما نتناول ألهيات الحيـاة وتفاهاتها . ولا نطمع فى أن يصل تقديرنا هذا للأدب إلى أكثر مما وصل إليه فعـلا فى أيام المتنبى وأبى نواس ومن عداهما وإن كان يحق لنا أن نحذو حذو أوربا والغرب فى هذا المضمار وأن يكون تقديرنا له كتقديرهم له سواء بسواء

« للحديث بقية ـ بغداد »

عبد الوهاب الأمين

من بريد القراء

التجارب هى إحدى وسائل « العلم » ، ولعل ساعة « التجربة » هي أمتع لحظات « العالِم » . خطر لى مرة أن أقوم بتجربة غريبة ممتعة : أن أضع امرأة فاتنة بين إخوانى الأدباء الأفاضل : العقاد وطه والمازنى وأحمد أمين والزيات والبشرى ؛ ثم أنظر بعد ذلك ما يكون . إنى على ثقة أنهم لن يناموا ليلتهم قبل أن يسطر كل منهم على الورق أشياء قد تكون من أجل ما كتبوا . إن المرأة الجميلة فى مجلس الأديب لها فعل السحر . تستطيع بغير عصا أن تخرج جواهر البيان من أفواه الأدباء ؛ إنّا لا نكاد نجد أدباً من الآداب العظيمة لم يرو لنا خبر المرأة فى مجلس الأدب ؛ فاذا راجعنا الأدب العربى القديم وجدنا ذكر الجوارى اللواتى كالشموس ، الضاربات بالعود ، اللاعبات بالنرد ، الراويات للشعر ؛ وإذا نظرنا فى آداب الغرب فى كل عصر وجدنا أخبار « الصالونات » وما فيها من أقمار كلهن ذكاء وثقافة ودلال . نعم ؛ وهل يمر يوم على أديب من أدباء الغرب لا يجلس فيـه إلى مائدة تزينها باقات النساء الجميلات ؟ ! فيلبث ساعة يتحدث إلى ملكين رقيقين عن يمينه ويساره يقطر الوحى من شفتيهما ، ثم يعود إلى عزلته وكتبه وورقه ليمضى فى إنتاجه الأدبى ، هذا الإنتاج الذى نراه بعد ذلك آية من آيات الإعجاز ! أما نحن فلا عرب بلغتنا ولا غرب ، ولا شموس حولنا ولا أقمار ؛ ولكننا أدباء كالعناكب ننسج فى الظلام ، ونعيش فى الجدب والحرمان ؛ ومع ذلك ننتج أحياناً ، وهنا حقاً آية الإعجاز ! إن أولئك الذين يتهمون أدبنا الحديث بالتقصير هم قوم ظالمون أو أغرار لا يبصرون . إن أدباءنا المعاصرين لجبارة مستبسلون ، ومجاهدون مستشهدون ، لم يعرف مثلهم أدب من الآداب . فما من أدب فى التاريخ استطاع أن يظهر فى ظروف اجتمعت على خنقه كهذه الظروف . اللهم إنّا شهداء ! اللهم إنّا شهداء !

نوفيه الحكيم